قصص

جنون
دون سبق الإصرار

خلف الزرزور

- جنون دون سبق الإصرار
- خلف الزرزور
- الطبعة الأولى - دمشق - 1999
(1000 نسخة)
- جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

طبعت هذه المجموعة بالتعاون مع اتحاد الكتّاب العرب

إلى الأمل الذي انتظر أوبتي، على أحر من الجمر..

إلى الأرض التي تشهت أنفاسي... وظل شوقها يحرقني..

إلى الأم التي عرت صدرها، مرات أمام الله في الليل.. دعته وتزلفت إليه، كي أرجع من غربتي..

إلى القلب الذي استودعته الحب والعمر وعصارة كبدي..

إلى أحبائي الذين لا يفارقون القلب..

إلى وطني..

وطن هؤلاء جميعاً..

إلى بيتنا، وشجيراتنا، ونسيماتنا، وسهراتنا..

إلى «النعيمة» وشم على القلب..

أهدي عملي المتواضع..

جنون دون سبق الإصرار

"إمّا أن البئر كانت عميقةً،
أو أنّ السقطة نُفذتْ بإحكام
فلم نسمع الصدى"

[من فيلم مشاعر تحت المطر]

لحظة ليست من الموت، لكنّها ليست من الحياة، عشق بوهيمي متأجّج، يتأرجح في فضاء رمادي يغسل الأشياء جميعاً.

يبتلع أوجاع الطفولة، والإرث المتراكم والمتجدد من الشبق المزمن لكلّ ممنوع، والذي يثقل كاهله منذ أدارت المشاعة ظهرها لقطار التاريخ والحياة.

غضّ طرفه بذهول وتساءل: كيف ولد منه هذا الحلم؟. كيف مات فيه قبل أن يتبرعم ويترك أثراً ما، بصمة ما في وجدانه؟

انهالت عليه الأسئلة المبرّحة، تمزّقه، وتبعثره، وتفتك بكيانه الهشّ.

هل غدا مزرعة للخراب والسقوط غير المنظّم؟

أتراه أصبح مزبلة للرذيلة والإفلاس؟ أم وكراً يعشعش فيه الإحباط والتلاشي؟.

لا يدري متى أقامت تلك القذارات متاريسها في سمائه، وأنشبت مخالبها بينه وبين روحه النقية كالحلم، الشفّافة كالندى، ونخرت في وجدانه نفقاً للإحساس الآسن، والمكتظّ بالرجس، يبتلع جذوات الحرارة والتمرّد والألم، يخنق، أو.. يكاد، أيّ إحساس بالانبعاث والجدوى.

ويله....

هل غدا مغفّلاً إلى هذا الحدّ؟ حتّى تتسلّق هذه الآفات القاتلة نفسه، وكبرياءه، وتقتلع جذوره من الهواء..!

كيف نهضت تلك السدود بينه وبين روحه؟ بينه وبين شطره الأقرب منذ لا أدري؟

تململ، لملم مزقه، أشلاءه، سقط متاعه التائه، وآلاف الأسئلة تتزاحم ولا يجد لها أجوبة.

«وماذا تعنيني أجوبتها الآن؟ لو عثرت عليها، فربّما كانت أشدّ إيلاماً من الأسئلة... لكن؟ ربما كان فيها الخلاص الأبدي»

يا ربّ قل له ماذا يفعل؟ وأبواب السماء، والنساء، لا تفتح بالرجاء وحده.

في اللحظة ذاتها، أحسّ أنّ شريداً يجوب دمه، قاصداً، ينفث سمومه الفاحشة اللذيذة.

تجتاحه الشهوة الجائحة وتصهل في الأحداق والعظام.

يهتف طارقاً متاهات لا حدود لها بينها ظلال أبوابه، مشرعة على تعسه اللانهائيّ.

يسير فوق الماء، في الهواء، فوق الفلسفة والخيال، ويتسرب في الحلم ليقف على تخوم الوجع والجروح المنسيّة، فيضجّ الجسد بآهاته، وتنقصّف ساقاه، يجرجر أوهامه، يلهث ككلب أقعاه الحرّ، والذلّ، والجوع، على أعتاب مطبخ مهجور.

أمّا وقد انتشت النخوة فيه، وتنفّس الأمل، نهض يحمل أوجاعه وجراحه كالرجال، تمزّقه، وموروثاته التي لا تحصى وقود دخول المواجهة مع نفسه أولاً، ومع الحياة والناس تالياً..!

قرأ إمكاناته وموازينه مرّات، اطمأنّ لإرادته الفولاذيّة، هكذا عهد نفسه، إنّه يحتكر عامل الانتصار الحاسم...

لا يعرف أيّة قوّة مجهولة وضعته فجأة أمام المرآة، أم وضعت المرآة في طريقه...؟

هل ترى قادته قدماه إلى الهجوم المبكّر، ومباغتة نفسه في مكانها...؟ إذْما لمّا وقعت المواجهة واحتدام أوارها، لم تأت النتائج مشجعة مثلما توقّع، انتابته موجات من التردّد واليأس، زلزلته الصاعقة التي انطلقت من المرآة، صرخ من هول ما رأى... ما هذا؟

أيّ شخص أنت بين هؤلاء؟ أيّ إنسان أنا؟ أينني بين كلّ هذه الوجوه؟.

كمحارب عنيد، راح يلملم فلوله، خرج من المرآة بكلّ

وجوهه وأمارات الاندحار والخيبة تعتريه، وتصبغ وجهه الأميز بالرعب، وتساءل بيأس المنكسرين. . . ما فائدة معركة لا تعرف فيها نفسك من عدوك؟!. .

هام على وجوهه، تخبّط، تفقّد أجزاءه، جسّ أعضاءه، مختبراً حساسيتها، زان مشيته بمقياس الناقدين.

يعتقد الآن أنّه لا يزال يسير وفق ما اعتاد، وفي نفس الوقت رأى نفسه مطارداً من قبل أجهزةٍ وعصابات، إنساناً آخر يمشي في عرض الطريق، وكيفما اتفق. . . !

ووجد فيها إنساناً يهرول للوراء، وآخر يركض بلا معنى، بلا اتجاه، ولم يرَ أحداً يتبعه!

وجه آخر، وآخر، وآخر. . . .

يزعم. . . ورغم تعدّده المستمر، أنّه غير مرئي في أيّ منها، وعلى العكس من ذلك يرى الأشياء والناس جميعاً.

فجأة. . . رأى نفسه عارياً تماماً، تلفّت حوله، وتناثر الخجل كالزفير، والجميع يشيرون إليه وأصداء ضحكاتهم وسخرياتهم

تتمرّغ فوق جبينه وفي رأسه، تغسله بالرعونة والتأثر لنفسه.

ارتعدت فرائصه حين ظهر لنفسه أنّه يتلاشى في الفراغ كالهواء، توقف، أحسّ بدوار يخترقه شاقولياً، تزاحمت أفكاره الأصيلة والمزوّرة، وأعمته الاحتمالات المتولّدة كالسرطان.

في ومضة وعي قدسيّة قرّر أن يضع حداً للانهاريات المتلاحقة..

إذاً، عليه أن يحشد مختلف قواه الروحيّة والماديّة، ولأنّها معركته الأخيرة، تداعت احتياطاته الكامنة في الأعماق، لشدّ أزره، دغدغدته أعاصير النهوض والانبعاث، وهي تجتاح دمه كالحمى، انتصب كالرمح، سمّر قدميه إسفيناً يخترق سبع أراضين، أخذت قامته تتطاول، لحظتئذٍ، ارتجف خوفاً، أن يتبدّد في الفضاء لفرط شموخه وارتقائه المضطّرد.

لمعت حقيقة الواقع المزيّف، والموبوء الذي يعيش، عصر جبينه فانبثقت سلاسل متوازية من التجاعيد المضطربة التي تنذر بزلزال وشيك، صرّ جفنيه بتركيز، لا عهد له به، حتّى تحوّلت عيناه إلى

ثقبين أسودين عميقتين، فوداه انتفختا كتفاحتين معطوبتين، تحفّزَ حاجباه واشتبكا كمهرين أصيلين في عراك ودودٍ شريف.

عندها، تجلّى ألقه إلى حدوده العظمى، أغمض قلبه كي يحاور عالماً ورديّاً، راح يتشكّل على مهلٍ مثلما شفقٍ يتنامى على شاطئ مهجور، وبإبهامه ووسطاه أطبق على جفنيه، مخافة أن تتسرّب تلك الصور التي وجد نفسه فيها فارساً ذا مراسٍ، إنساناً آخر غيره في هذه اللحظات، وجه آخر، معالم يألفها، ويطمئن عليها، وإليها.

لقد كان هو فعلاً، نعم هو، هو الذي كان دائماً، وجه واحدٌ طافحٌ بالأمل والحيويّة، دخيلة منسجمة، فحولة مخصبّة تشع من أظافره، تبثّ أريجها في الحياة غباراً، يلقح كلّ المعاني الجميلة والصباحات الرائعة، فينفجر الربيع أينما وقعت.

كأنّه لا يريد، بل هو يريد فعلاً أن يفتح عينه فيرى العقم يتفشّى كالزيت، والسماء تمطر إملاقاً وصحارى وحجارة، فيورق الشجر بالعناكب والطحالب والنفاق، ولا يرغب أن يرى أرضاً تعمّرها الأفاعي والوحوش وأسماك القرش ووجوه تتغيّر

كالأحذية.

يجب أن يظلّ الزمن واقفاً هنا، حيث هو.. هو!

لا يريد أن يدخل سراديب الوجوه المتعدّدة والمتقلّبة، وأنفاق التبعض والهيولى، أو يتورّط بالإيهام والسوريالية، أو يرجع لمتاهة تبتلع الأحلام والفقراء، ولا تبقي ظلالاً لشيء جميل.

ولأنّه، يكره التنكّر، يكره الزيف والتزلّف، تمنّى أن يبقى رجلاً واحداً فقط، وجهاً واحداً لا غير، اسماً واحداً لا معجماً من الأسماء والأوصاف، اسماً يبثّ الحيوية والخصوبة دون مَنّ.

إنّه باختصار شديد، يرفض أقنعة المواءمة والتكيّف، ولا يحتملها...!

نهض يقاوم الإحباط والخراب والعنّة، تقنفذ على قدره ويديه النظيفتين، العفونة تفترس اليخضور، تحيق بمفردات الحياة، وتحاصر الطفولة في المحاق، وينسج الطحلب المحروق شرانقه في نفوس الخلق، ولهذا كلّه، ولكثير غيره، لا يستطيع الحياة خارج فردوسه الساحر الورديّ، الفردوس الذي يقف على أطلاله

الآن. . . . !

كان بين الافتتان والخيبة والحلم، طائرٌ من الملائكة، ينعيه في ملكوت الروح، ولذا سيظلّ متشبّثاً بعالمه بإصرار الغريق.

الحياة في ضجيجها وصخب رحاها لا تلقي بالاً لإحساساته، ولأوجاعه، يتقلّى في أتون المرجل الكونيّ، يشوي ذاته، ويصلب روحه ثمّ يسحقها، فأين له وهو في هذا التبعثر والانشطار أن يسمع أصوات المارة، وتحذيراتهم، وتساؤلاتهم، نكاتهم التي ضاق بها الشارع، نعيق السيارات الراتلة خلفه، وعلى جانبيه، دون أن يدرك أو يحسّ بمدى الإرباك الذي أحدثه في نظام الطريق، لأنّه لا يسمع إلاّ أصداء عالمه الداخلي والمعارك الدائرة بين ذواته المتنافرة، ثمّة واحدة يعترف بها، وجهٌ واحدٌ يتعلق به في ظلّ طغيانٍ هائل للأعداء والعداءات التي تصرفه عن ضجيج الحياة و حركة الطريق، عن الأضواء الحمراء والصفراء والخضراء المتلاحقة، عن صفّارات الشرطة، عن قهقهات السابلة والفضوليين، عن اشمئزاز السواقين، بينما هو ممعنٌ في الغوص بعيداً وعميقاً، بل راح يتمادى في استحضار عالمه الذي أصبح

عتيقاً، وربّما مرفوضاً من غالبية القطيع، مسخرةً، و.....
رجعياً!!

يضحك في نفسه، من كلّ قلبه، يتسامى في النشوة والكبرياء التي صاغته حتّى الآن بمقدار ما كان يهرب إليه من مرارة الواقع الماثلة أمامه بقوّة، ولكن خارج سيطرة حواسبه قاطبة..!

استمرّ في سفره المبتعد عن صياح الناس واحتجاجاتهم وحسراتهم عليه، ولم يبصر الأصابع التي تشير إليه، حتّى كادت تفقأ عينيه، ولا يسمع شتائم المتضررين، ولا حوار الفضوليين وتساؤلاتهم، واستغرابهم؛ والأوصاف والاتهامات، مجنون، ضائع، يا حرام...!

مسكين، أبله.

ياجماعة، جاسوس...؟!

تحتشد الاحتجاجات، وتتكاثف، وتملأ الفراغ بالنهيق، وتواصل أبواق السيارات الإعلان عن حنقها ودهشتها، والفوضى تتصاعد حتّى الأوج، وبكاء الألم والفجيعة يتعالى إلى السماء.

فجأة، وبلحظة قاتلة، كأنّها ضربة قدر؛ فجأة.. يصمت كلّ شيء، الهواء، الأنفاس، كأنّ الموت يكسو الوجوه، وحديد السيارات، وصفّارات الشرطة، وأحجار الأرصفة، والناس المنتشرين على «الأساطيح» المطلّة، والشرفات الملتهبة.

جمدت العيون والأصابع حيث كانت تشير وتتجه، التصقت الألسن بالحلوق، حيث محرق الأنظار والأبصار والأصابع جميعها، والأفواه المفتوحة، ولا يدري أحد، لم يعرف كيف ومتى توقفت سيارة بيضاء أمامه، بعد أن اخترقت حرمة الصمت، ومهابة اللحظة والذهول... ؟!.

فمن قائل إنّها هبطت من السماء، وما هي سيارة عادية..! فربّما كانت صحناً طائراً؛ إلى قائلٍ: إنّها عفريت طلع من الأرض؛ إلى متأكدٍ أنّه شاهدها تلاحقه دائماً، تعدّ خطواته وتصوّرها دون أن يعرف السبب!، لكن الأهم والأكثر صحة، أنّ السيارة التي رآها الجميع تخترق المألوف للوصول إليه، قذفت أربعة رجال يلبسون أردية وقلانس بيضاء، وأربعة آخرين مدجّجين بالسلاح والذخيرة، يرتدون ألبسةً صفراء رسميةً.

تقدّم الجميع وأحاطوه، دون أن نشعر أنّه فوجيء بهم، أو حاول الهروب منهم، بل أذهل الجميع لهدوئه، حيث لم يُسمع صوت أو نأمة تخدش هذا الصمت الشامل، بل أذهل الأرض التي يقف عليها، والنهار الذي يفضح كلّ شيء، ويحتضن كلّ هذا العري والجنون، وبعد أن أدخلوه إلى السيارة، أحكموا إغلاق الأبواب، بأقفال خارجيّة، وبلا تردّد أو إعاقات، انطلقت السيارة بجنون إلى جهة ما....!

وبعد دقيقة واحدة تابع الشارع ضجيجه المعتاد.

موت بالعملة الصعبة

تمدّ يدك بعصبيّة المتلهفين، كي تحصد حلماً تراءى لك بأنّه البقاء، هل كنت تستغيث...؟ بينما ضجر المتشكّكين يحطّم أعصابك.....!!

راحت أظافرك تخدش بعنف جدار الفضاء. الذي يطبق على أنفاسك، ويسعى إلى إغلاق كلّ المنافذ... منافذ الحياة في وجهك وإلى الأبد.

تنتفض يداك، وتتشبّث بساعة من الزمن، تدفع فيها نزاعك الأخير إلى أجل؛ هل كانت صيحة غريق وحسب؟ تلك التي ملأت الكون ضجيجاً وألماً؟ أم تخبّط مهووس حالم؟ لكنّ يدك القصيرة، كلسانك، تسقط في فراغ لا نهائيّ، هوّة سحيقة تبتلعها

وتقتلعها من قلبك، فترديك كتلة منفعلة عاديّة، في محيط من اليأس، فتعرف أنّ حياة طافحة بالصخب والنور والدفء سُرقت من بين أصابعك، إلى غير رجعة! يجتاحك الهلع حينما يقفز هذا الفراغ، ويملأ صدرك بالصديد، روحك الآن تتأرجح فوق سكونٍ غائر في أعماق لا قرار لها.

هكذا، وبضربة واحدة، هرب الحلم والتاريخ، وطوّحت الأقدار اللعينة بكلّ ما كنت تعتقد أنّه أصلب من الزمن والخوف، أقسى من الصوّان، وأبقى من التاريخ، لأنّه هو التاريخ، والكرة الأرضيّة.

ماذا تقول، وأنت تحيا في مقبرة بلا حدود؟ مفتوحة على كلّ جهات الكون، مدثّرة بالرعب والجند والجوع و...، بينما الأشباح التي ترعى على أديمها تتحرّك بلا هدف، وكأنّها مضروبة على رأسها، وأنت تحمل تلك المقبرة على كاهليك، منذ خلقت...، تجترح آلامها وآثام القاطنين فيها.

كيف يمكن التنفّس؟ ولا هواء حرّ بين القبور الشاهقة إلى السماء، أو في الشوارع المرصوفة بالعظام، أو في ازدحام الأقبية

الرطبة، ولا حتّى في الأسرة التي يفقّس فيها العثّ؛ وقبل أن تختنق، وتُطوى أوراقك، تتطلّع إلى السماء بحسرة، وفي أعماقك رغبة أن تلمح نوراً ما، يبرق لعينيك، فيغذي بقايا الأمل، يفجر. . ، يتحفّز في مكان ما. . . ، أو رحم ما. . . ، أو ضمير ما. . . !! وعلى الرغم من معرفتك، أنّنا في صدر تموز، فإنّك لم تلمح نجماً أو قمراً أو بصيص ضوء. . . !! فالسماء انتعلت وجهاً آخر للهوّة التي سكنت صدرك. . ، وأمطار اليأس تُغرق كلّ أوهامك وأحلامك، فمن أين لك أن تتنفّس إذاً؟ ولا هواء حيث لا فراغ. . . ! والقبور التي لا تزال تحتفظ بين لحودها ببعض الهواء ضاقت ذرعاً بقاطنيها، وبدأت تغتاظ وتتحسّس، من ثقل دم موتاها الأحياء. . . !!

كيف تفهم وتتوازن. . ؟ وأنت في هذه الدوامة السحيقة اللامحدودة، ذرة غبار تحاول أن تستغيث فلا يتجاوز صونك آفاق حنجرتك العتيقة، إذ حالما تتجاوز الكلمات مخارج حروفها، تتلعثم، وتسقط منهكة في صديد مسلول يقاتل سكرات النهاية، وشهيقك أشواك تلسع قلبك، وتثقب رئتيك، فيجيء صراخك

ضجيجاً يتفجّر في إرادتك، يكوي أعصابك، ويطبع مشاعرك بالخوف والحيرة.

تركض خلف عينيك، حيث حطّتا في مقبرة عجوز، عمرها من سكن هذه الأرض، تعتريك الحيرة ويشلّ الإحباط إرادتك، وأنت في منتصف الطريق؛ تتساءل... تعود إلى قلبك وحساباتك ويقينك.. إنّه لا يكذب عليك، بل يوحي إليك: هنا موت... وموت هناك..، قبور، وقبور هنا وهناك..، اختناق وجوع وحرّاس مدجّجون، ومخبرون هنا...!! وناكر، ونكير هناك!! ولا وقت للمزاح، لكنّك تبتهج لليقين الذي احتضن قلبك، وغمر روحك بالطمأنينة، بأنّ المقابر لا تزال تحتفظ بهواء يمكن تنفسه..! بل والكثير من الأمل والرجاء.

تهيم على وجهك، تقودك قدماك حيث يستقر قلبك وفكرك، تتهادى كالأعمى، تتلمس في الفراغ... عصاً تأخذك إلى حيث لا عيون، ولا آذان، لا دواليب... لا دواليب... لا كهرباء مخصّصة للجسد الحيّ، تتذكر درساً في الفيزياء عن ناقلية الهواء للهمس «والوتوتة»، وحيطان القبور لها آذان...! لكنّك تقنع

نفسك، أنّ آذان القبور تفضي للتراب، والتراب يفضي للأعماق، والأعماق للمجهول، والمجهول للمجهول . . . ، وإلى آخر المجهول . . . !!

يداك تخاطب بذلّ باباً، تقول في نفسك إنّه لا شكّ يتسع لاحتضان قدم مطرود . . . ، تائه ملعون . . . !! يدهشك ويثير قرفك أن تتلمس عينيك في سقف رأسك، فحينما حاولت أن تنظر للخلف، كي ترى آثار أقدامك، وتضع رأسك بين رؤوس القطيع . . . ، منعت عيناك رأسك من الانحناء . . !! سقط الفراغ من روحك، وانهزمت الهزيمة في نفسك، أذناك الباقيتان حيث عهدتهما، تستقبلان أصواتاً مختلفة الأطوال والإيقاعات، باهتة كأنّها أصداء لأعماق متسوكة، وأخرى تتفجّر بالهزء والسخرية، مردّدة اسمك . . . ، اسمك الذي يخاصم حالك، والذي ظننت حين سمعته بادئ الأمر أنّه لا يعنيك، ولا يلامس قشور وجدانك . . . !! لكنّ الصوت أيقظ الأموات من حولك، ولم يعد هنالك شكّ بأنّه يعنيك أنت . . . ، أنت بالتأكيد . . . لأنّك أنت عايش . . . !! كيف حالك يا عايش . . . ؟

جاءك الصوت صريحاً، هذه المرّة، فلم ترتعد فرائصك، أو ينعقد لسانك، مثلما كنت تظنّ. . . ولم تنتبك الحالة التي كانت تعودك، كلّما تجرّأت على الاقتراب من عالم الأموات، ليلاً. . . وعلى غير توقع، وجدت نفسك تتمتع بهدوء نادر، وأعصاب باردة، واستهتار مثير، ممّا أدهشك، وجعلك تؤمن أنّه اسمك، فاعترتك السخرية الفاقعة.

ـ عـايش. . . ؟ ها. . . . ها. . . نعم واللّه عـايش من قلّة الموت. . . . !! لم تفهم كيف، ولِمَ؟ انفجر المكان من حولك بفوضى من القهقهات المشبعة بالمرارة والهزء. . . والتي غسلتك بالغيظ والحماقة، عندما صدرت عن مجموعة لا تحصى من الضاحكين، الذين لا تراهم، وحالما هدأت تلك العاصفة التي أوشكت أن تقتلع تماسكك الظاهر مرّة جديدة، لكنّ السائل نفسه أنقذك حين أجاب: آه منكم أيّها الأحياء، تعودتم الشكوى من كلّ شيء حتّى بات لا يعجبكم العجب. . . تشكون من قلّة الدواء والكهرباء والماء، من قلّة اللحم والغاز، إلى آخر القائمة التي لا آخر لها. . . !! أمّا أن تشكوا من قلّة الموت. . . ؟ فهذه واللّه

«نكتة» الموسم في دار الآخرة. . . . !! ولِمَ ذلك . ؟ هل أصبح الموت هو الآخر مقنّناً . . . ؟ وبالبطاقات؟ أم تقاعد عزرائيل؟ أم أصبح الموت عندكم بالسوق السوداء، وبالقطع النادر؟ بالدولار يعني . . . !! ها . . . ها . . . ها . . . طوفان من الضحك الأسود يمهرك بالحزن، كأنّك أوقعت نفسك في شرك من الهازئين، رأسك التي تحمل أذنيك وعينيك في سقفها كانت كأنّها تدور وتدور على محور، تتلقى صفعات تلك الأصوات من جميع الجهات، ومن فوقك ومن تحتك، تدفعك كي تتبرأ منها، وتنكس للوراء في محاولة أخرى لتضع رأسك بين الرؤوس، وتتفقد ما بين فخذيك . . . !! لكنّ عينيك الواثبتين إلى العلا تمنعانك مرّة أخرى من الانحناء، كأنّ قوّة من اللّه شدتك إليها، وصلّبت عودك . . . يحدّثك صوت آخر بدا كأنّه أكثر اتزاناً ووعياً، هكذا قدرت من ترابط جمله وأفكاره.

- يا رجل . . . أنت عايش كيف هذا؟ والواحد منكم يموت ألف مرّة في اليوم، على حدّ زعمكم في الأفران والمؤسّسات والطوابير ومكاتب الحياة، في البيوت، في الطرقات و . . . .

و.....

ثمّ تشكون من قلّة الموت؟ أليست هذه مفارقة بحقّ السماء؟ إنّ أمركم محيّر والله...!!.

أراحك الاتجاه المتعقلن للحوار، ووجدت في نفسك دافعاً قوياً للتجاذب، مع تلك الموضوعيّة التي تسمع، أجبت بكلّ اللطف:

تلك هي المصيبة يا أخي... نعم نحن نموت ألف مرّة في اليوم كي نظل أحياء، وعلى أمل أن نحيا غداً حقيقةً.....!! إنّما دون جدوى، فنحن لا نموت ولا نحيا، حقّاً أصبح هذا الموت المبستر عقاباً مريراً لنا.

تراشقوا بينهم ضحكات الفخر والنصر، وربّما الشماتة، وهتف أحدهم: أتلاحظون أيّها الأخوة الأموات، أنّهم يحسدوننا على موتنا... ها... ها.

ودوّت عاصفة من الهستريا والضحك والصاخب، وحده غيظك يذبح الآن، ويقطر خمراً يسكرهم، ويزيد زهوهم

وشماتتهم، تنتظر كثيراً وكثيراً، كي تقول كلمتك الأخيرة، على الأموات إذ ماتوا:

حقّاً إنّ موتاً يزفّه القيّمون علينا، مشفوعاً بالأمنيات، بالعذاب الجمّ والدائم والمديد ودمتم. . . !!

حتّى صار الموت الذي تنعمون به أملاً مستحيلاً، وغاية لا تبلغها وخلاصاً للمتّقين. .

. . . . . وحسبْ.

راية للنصر والبراءة والموت

مسكينة أنت يا نظيرة . .

آمالك تتساقط كأوراق شجرة التوت الوحيدة في داركم ؛ وأنت وحيدة، بينما الناس، كلّ الناس، تثير القرف والرعب . . . حتّى أمّك وأبيك .

لم يعد ينفعك شيء، فأنت تتجهزين للذبح، وما هذا الاهتمام الزائد بتزيينك، إلاّ أن تكوني صالحة للذبح، شهيّة، حتّى تنهال عليك سكّين الجزار ؛ فالشاة قبل ذبحها تطعم وتسقى، ويزغرد لها، تقرأ فاتحتها بسم اللّه حتّى تودّع الحياة عمّا قريب .

لن تفيدك الدموع التي تذرفينها، هكذا كانت رفيقاتك وكان يقال: دموع الفرح. . . ، دموع الوداع لأهلها، لا تصدقوها: لها ثلثا الخاطر.

الآن فقط، أدركت زيف هذه الأقوال وغيرها. . . ، الآن تعرفين الحقيقة وراء تلك الدموع التي كنت ترينها وتظنينها ـ كما الآخرين ـ دموع الفرح.

من ذا يصدّق حقيقة دموعها الآن لو عرف. . . ؟

وحده يعرف، ووحده يصدّق دون أيمان، وحده يحترق بعيداً، وتحترق معه أحلام صاغاها معاً، تتحدّث عن غدٍ أخضر يرفل بالسعادة ويخفق بالحبّ، وشيّدا في لحظات الوهم الجذاب بيتاً صغيراً وآمالاً كبيرة وأولاداً صالحين، لكنّه لم يظهر اليوم أبداً. . . !!، لا شكّ أنّه انزوى في ركنٍ بعيدٍ عن أعين الناس جميعاً، كي لا يرى الشماتة في كلّ عين، بالرغم من أنّ أحداً لا يعرف شيئاً عن حبّهما وقصّتهما.

ربّما كان يندب حظّه، ويلعن النصيب وعجزه، ويرثي حبّه

الذي كان أضعف من إرادة القطيع.

نظيرة تختنق...، وهواء العالم لا ينقذها، وها هي تهوي إلى أعماق لا قاع لها، وكلّ العالم يتخلّى عنها، بما فيه الجبان الذي أودعت قلبها بين يديه.

- أتراه تركني وحيدة وهرب...؟

أمّك الحزينة لا تملك شيئاً لأجلك، اللّهم إلاّ أنّ تمطرك بالجمل الباهتة المعتادة، والتي بتّ تكرهينها ولا تطيقين سماعها.

- اصبري يا ابنتي...، ربما فعل الله شيئاً ينقذك، وإلاّ فالنصيب وإرادة الله...

- النصيب... النصيب... وإرادة الله...؟ لعنة الله على النصيب... وحاشا إرادته.

يا ربّ قل لها ماذا تفعل؟ مثلك لا تقوى على شيء، حتّى الرفض اللفظيّ وراءه سيلٌ من الأسئلة المذلّة والتأنيب الجارح؛ يتبعه ضرب وعصا وإصرار على انتزاع إجابة تصبح ذريعة لتمريغ آدميتك بالوحل.... من تريدين...؟ مع من ترتبطين...؟

شرفك . . . شرفنا إيّاك أن تنسي ذلك، أو تكرّري الذي قلته .

ـ لماذا؟ وآلاف الأسئلة الأخرى، ليست دموعك وحدها غزيرة هذا اليوم، أمّك مثلك الآن، وكانت في الماضي، وتعرف كيف ستكونين، وتعلم جيّداً أنّه لا جدوى من كلّ هذه الدموع . . ماذا ستفعلين . . . ؟ تتمنين الموت . . . ؟ أعرف أنّك صادقة، إنّما كيف . . . ؟ ومتى . . . ؟ يقيناً أنّ لديك بقيّة أمل بالفرج، هكذا علمتك أمّك والأيّام .

ترتعشين؟ وتتلوين، تتحسّرين، وتكبتين وجعك غصّة في القلب، تعتمل في نفسك رغبة الانفجار في وجوه الجميع . . .

الضوضاء تقترب، تفترس استقرارك، وها هم قادمون، ونظرة واحدة إلى أمّك فيها من الشكوى والعتاب واللّوم واليأس الكثير، لكن ما ذنب المسكينة . . . ؟

إنّها إرادة أبيك الجبّار، الذي لا يجرؤ أحد على الاعتراض على رأيه، أو كلمته .

ـ قلت لهم موافق، ولن أتراجع عن كلمتي؛ أتفهمين؟ ثمّ ما به

حامد، أمواله لا تأكلها النيران، وأملاكه لا تعدّ. . . وماذا لو كبرك بعشرين سنة؟ صراخك وبكاؤك لا يجديان، رفيقاتك اللاتي لا يعرفن سرك، يظنّنها ـ كما الآخرين ـ ومثلما كنت تظنينها، دموع الفرح. . .

أدركت الآن، وكما سيدركن فيما بعد، وأدرك من سبقنك، أنّها غير ذلك تماماً. . . !

تنهمر الأصوات كالطلقات في رأسك، يتقدّم الذي باعك، ويقترح حين يلاحظ دموعك وانهيارك قد غطّيا وجهك. . ، صلّى الحضور على النبيّ، وتهامسوا بالكثير، وحسدوا حامد، إنّها بدر في ليالٍ نيسانيّة. . . . !! واقتادك. . . نعم اقتادك، الفارق الوحيد بينك وبين الشاة أنّها تقاد من عنقها، بينما أنت من يدك، وساقوك أمامهم فرحين، الآن أدركت أنّ المظلوم لا يجد من يسمعه دائماً.

الأرض لن تنشق وتبتلعك، مثلما تأملين، والأمل الوحيد الذي يداعب مخيلتك ويربطك بالحياة:

«سأحاول إقناعه، سأستفزّ نخوته وإنسانيّته، علّه يرحمني ويعلن إطلاق سراحي، لكن... ويلاه لو كان كالآخرين.... !! فأنا لا أعرفه ولم أتحدّث إليه».

إذاً، أنت تجهلين أمثال حامد والذين يدفعون الكثير لعروس حلوة مثلك، ترى... هل بإمكانك إطلاعه على سرك؟

يا لك من ساذجة، فربما منحته سلاحاً آخر بيده، وربما وصلت به الحماقة أن يفضحك...، وتعترفين... أبوك سيعتبرها إهانة لشرفه ترافقه إلى الأبد، ولن يقبلها.. وبالتأكيد سيذبحك.

- ليذهب الشرف إلى الجحيم.. فربما، وربما...

أيكون ما تريدين وتأملين...؟ معك كلّ الحقّ أن لا تنظري إليه، وهو يرميك بحبّات الحلوى من فوق بوابة الدار، حتّى أنّك لم تشعري بها حيث أصابتك..، الحنّاء لم تلتصق... !! لم تكن يداك جادتين بلصقها... ارتعشت أفئدة الناس، وتهامسوا، كأنّ الطير على رؤوسهم، حطّ التشاؤم بثقله على وجوه الجميع،

وأبيك أوكلهم، وفي هذا الصخب والاضطراب تسألين نفسك عنه... هل يستحق هذا...؟ أينه في هذه اللحظات..؟.

إنّه شاردٌ في السهول كي لا يسمع آهاتك، يركض وراء شجاعته الهاربة، وقد ضلّت منه الدروب والوسائل، ولم يهتد بعد إلى حيلة تنقذه قبل أن تنقذك، إنّه يتأرجح في أتون الليل القادم...!.

وعمّا قريب سيأتي فارسك الجديد... انظري إنّهم يدفعونه إليك، وها هو يخطف قبلة من رأسك، جاءت كالمطرقة فوق جبينك.

ينصرف الناس، وتقفل الأبواب، ويبقى ذوو القربى ينتظرون الفصل الأخير... أغلق الباب... ماتت الآمال... وحدك الآن وجزّارك، وكالقدر اللعين «يطبّ» فوقك.

فجأة... تشعرين بالأنفة والعزّة تشعلان فيك التمرّد... ترفضين الموت... تتمنّعين، وتأبين أن تسلميه مفاتيح قدرك... يتظارف، ويتملقك... يأتيك طرقه شتّى... والنتيجة واحدة:

«لا أريد... لا أريد أرجوك... ارحمني».

يهدّدك بأبيك... فتزدادين عناداً... مسكينة، طفولتك وبراءتك تدفعانك وتغريانك، فلا تحسبين حساباً لما يدبرون، وما يقدّرون عليه، وما سيحكمون.

- لِمَ؟ ترفضينه...، هل هناك أحد؟ ربّما تكون...!

- أعتى الرجال لا يستطيع ارغام امرأة على مضاجعته، فكيف بـ...

ويقع الخبر كالسوط على وجه أبيك، تلسعه الأعين المستفسرة والمشحونة بالاتهام، وبلا وعي، وكالمصعوق يصرخ... ماذا؟ لا... لا.... لا يمكن... ابنتي لا تفعلها...

وتزداد تساؤلات الأعين والألسن...

أبوك يتمنى أن تبتلعه الأرض... تصوّري ذلك، ولا بدّ من إظهار شرفه... وإلاّ....!! لا بدّ من غسل العار وتتوالى المحاولات من المقربين، لكنّك ترفضين من جديد... وتحسبين أيتها المغرورة أنّك ستنجحين، وتعود العيون إلى أبيك، يهرب

منها . . . ولكن إلى أين؟ وحتّى متى؟

يتهامسون، ويدبرون شيئاً ما، يعلنه أحدهم على الفور: إذاً لا بدّ من إرغامها . . . وإلاّ . . . . !!

ـ موافق . . . موافق . . . . كفى أرجوكم .

أمّك تصغر أكثر فأكثر، وينقبض صدرها، ترتجف وتكاد تصعق، أبوك يتحسّس خنجره وينظر بشزر إلى أمّك . . .

وتمرّ أدوات الإعدام «حبل وخيزرانات» أمام الحضور وتحت أبصارهم، ولا يعلّق أحد . . . وتبعث روما من جديد . . . ولا اعتراض على المجزرة التي تنفذ بإحكام وأعصاب باردة . .

يخيّم الصمت . . . صمت ثقيل قاتل في الداخل والخارج، في النفوس، في الكون . . . نسمع بعد قليل حركات «ودربكات»، صرخات هائلة . . وصدى لسع الخيزرانات . . . آهات ونشيج، وصمت، صمت جديد تام يوقف الأنفاس . . .

ـ «يا ضناي» . . . ويغمى عليها وتتجه الأعين إليها وهي محمولة إلى غرفة تخفيها . . . وتُنعش فيها .

لا شكّ أنّهم نجحوا بتثبتك، وإنّك الآن جثّة هامدة، وما على جزارك إلاّ أن يسحب سروالك المبلل بالعرق والدم، وبسهولة وبدون أيّ عناء يجهز عليك...

صرخات مخنوقة... مسترحمة... محدودة، تنوس بسرعة، كالأمل الذي ضاع وانطفأ، لا تكاد تسمع، وكأنّها لا تعني أحداً... الآذان والعيون المفتوحة تنتظر شيئاً واحداً... ولا يطول..

يُفتح الباب، ويخرج الفارس المقدام، المتصابي يلوّح ببراءة شرف أبيك وراية نصره... لقد اقتحم حصون القسطنطينيّة المنيعة، وجاء بشهادة وفاتك موقعة... المنديل الأبيض الذي احمرّ..

تعود البشاشة إلى وجه أبيك، وتصحو أمّك من موتها... ويلعلع في الليل الموحش صدى الرصاص والزغاريد.

ووحدك تبدئين مرحلة التلاشي والانتحار معاً.

حوارٌ عقيمٌ

اللحظات المسكونة بالفراغ والخيبة، تتريّةٌ مثلما الجنوح الذي يتسلّل في الأوردة، يسكرها بعد أن ترتكب الذاكرة الآثام المتكرّرة المتراكمة؛ لكن ذاكرتي اليوم موبوءة بزمهرير الوحدة، هائمة في متاهات الضياع، غيوم عجفاء تنصبّ طقوسها في سماء ذاكرة.

معتقل، مثقلة بالغربة والوهم واليأس؛ حيث تحاصرك الجدران البلهاء والأبواب الداكنة، من جميع الجهات... من تحتك ومن فوقك، حتّى لا يظلّ ثقب بمساحة رأس الدبوس في عباءة هذه اللحظات، تتنفس منه أملاً.

لن يطلب الربّ منّي ولا الأولياء المدجّجون بالعصمة المزوّرة

أن تجود سمائي بغير وابل من الوجع والهستريا، وترديني نهباً للدهشة والياس.

ربّما جذبتني السرابات الواصلة بين الوهم والوهم، بين الوهن والوهم، وارتجلت قدماك الخطو بين حقول الآلام والأشواك، ومثلما ينفجر العفن برطوبة الأجساد والنفوس، يزحف العقم ليقضم ربيع الأفئدة الحيّة، وسهوب الأرواح المخضرّة، فيجعلها يباباً.

لقد هزلت فيك الإرادة، ونخر الكفر بالقيم الباهتة ـ كوجه عدوّي الذي لم أعرفه في جميع معاركي ـ التي ظلّت آلاف السنين وستبقى عسساً في وجدان الناس، يمتص اليخضور الذي تعملق أمام الرياح، حين اجتياحها الجسد الغضّ العاري من جميع أطرافه، تمضّه وتقهره، تضنيه وتتلفه، وتذروه أشلاء على مشاجب الإفلاس وسراب الآفاق.

كان يعيش اللحظة المخادعة، من اللحظات التي تتراءى للغريق المتشبّث بالحياة؛ تشردّت جذوة من لهب كاذب، شدّت إليها الأبصار العطشى والزائغة في أبجديّة الظلام، والمشوشة لأنّها

لم تقف على يقين قط، منذ أن خيّم تنين المحيطات السوداء، وطغى حدّ الشكّ والضبابيّة، على تلك الجذوة الشاردة، فانطفأ الكون هنيهات، جاءت زلزالاً من الآمال والدّعة والإحباط، بخبطة واحدة، فيضطرب الهرم المسكون بالمحرّمات، وتتسلّق التصدعات جبروته، ويغشاه السكر المجنون، بعد أن يعرف فجأة في أوحال تلك الغبطة.

روحك ظلّت تبحث في دنيا محطّمة، شيدتها خافيتك اللاطية وراء أسوار شاهقة من سقط الجرأة، وعري الحقيقة، وطوفان الإرهاب؛ كانت دنياك تلك لا تناهيّة!

لم أكن أعرف شيئاً عنها، فيما سلف، حتّى اكتشفت مصادفة قريني اللدود، الذي لا ينفكّ يحملني أوزاره فشله ونكوصه المتعدّد، منذ أن حكم عليه بالتواري في كهوف سحيقة من الظلمة، جاعلاً منه مخزناً لرغباته ومختبراً لأحلامه تلك الجذوة.

راح يمخر في بحر من الزبد اللذيذ والحذر العميق، المنبثق من وجع الولادة والخلق، بين الفينة وأختها كانت تلاطمك الحقيقة فتسأل:

هل كانت «الطشة» حظّ طائشة، وابتسامة مائعة للقدر. . . ؟ أم كانت. . . . ؟! أم جاءت ومضة من نصر حقيقيّ. . . ؟ أم تراها ارتعاش دهشة طاغية يتقيؤها كلّ من تغتال حريّته، وتغتصب إنسانيته في وضح النهار، فيسقط في مستنقع الحرمان والتهيؤات التي تغزوه متسلّلة عن عيون الرقباء، الذين لا يغمضون. . . ؟؟!

حوريّة قدّت من نور ونشوة، انبعثت من الأعماق الغائصة بالنسيان، تدلّت كالوحي من أحشاء الخلق والحلم، أهي «مونادا» الصحو والعشق. . . ؟ أم ترجّلت خفقة لليأس قبل الإنشاء، في فراغ مترامي الأطراف، فبدّدت اللحظات السعيدة. . . ؟

حورية تربّعت على تاج البهاء، والنضج، بلغت أقصى مبالغ الأنوثة في شباب امرأة تتفجّر بالحياة وطغيان الرعونة العابثة، وأحبال الكيد المثير.

طار صوابه كالحريق، وقرينه الوفيّ يقذف إليه بتلك الأسطورة المفعمة بالفتنة، فأوقعوه في تأنيب الضمير، لإذلاله إيّاه.

لم أصدّق أنّني أتخيّل أنثى بتلك الروعة، أم كانت رغباتي

التي لم أجرؤ على مقاربتها بالأحلام . . . ؟

لكنّه اقترف الجرأة في تجسيدها إطاراً لمدّ جسور الزلازل إلى أقاصي الذات، فاستحق بنظرة الهبوط إلى درك لا يُسمع صوته فيه إلاّ هو . . ، أتراه ينصب له شركاً لتوريطه، والإيقاع بقواعده وصرامته وأقنعته . . . ؟ أم تراه صادقاً يدفعه للتعلّق بخيوط الأمل والحياة، فانبرى يزوّق تلك الملاك التي تعرّت إلاّ من قميص لا يحجب إلاّ ما يحجبه الهواء عن جسد مرمريّ رسمه في وعيه، فيما سلف، دون خوف.

ها هي تلاعبك وتتعمّد إغراءك فيما تعشق وتجنّ، تنثني كي تفرج عن نهدين تكوّرا واستدارا، ربّما منذ ربيعين من غير أن يلفحهما برد قارس أو جفاف بلا ضمير، انتعشا واشتدّا دون أن يتصلّبا، فأطلاّ إطلالة المتحفّز للوثوب الواثق، فتماوجت فيهما الحيويّة والجاذبيّة، وتجلّى في توفّز حلمتيهما تمرد حبنيّ الكرز الضجر من الأسر إلى غصن ظالم، فاهتاجا واحتقنا بالرحيق الذي يعصف باستقرار النفوس الجائعة والعيون المحروقة، واندفعا بإصرار لتأديب حرير القميص وتأنيبه مرات ومرات، كلّما

تململت النهود المتخايلة من تحته كي تصوغ حلماً شفاه الكون قاطبة.

في حمأة ذلك العراك الشفّاف ينحسر شال القميص متخاجلاً، ليفتسح أفقاً تحت الإبط لجذر النهد الطالع من تربة ذهبيّة، طلعة قمر مكتمل، أو ربّما انبثاق فطر تخلّص للتوّ من قيود القشرة المتصلّبة، واقتحم عالم النور والنمو ذلك العالم المتخم بالضجيج والطفولة، تحيل صدراً بركانيّاً مشحوناً بأسباب الثورة، يستريح بدوره على سندس مترقرق هادئ، لا يعكّر انسيابه إلاّ تلك الوهدة في مركزه، والتي تشي بالينبوع، يساير استرسال القميص مسايرة النسيم الجبليّ المنحدر بتراخ، حتّى يشرف على ذاك السهل اللطيف الذي يغيب خلسة تحت البحر، تاركاً النسيم يحاور أمواهه، ويداعب طيّاته الناعسة، التي تنمّ بابتسامة لا تفهم.

هنا ينكمش القميص على نفسه، متوارياً خلف تجاعيد متلاصقة، فاسحة المجال لفخذيّ آلهة البحر، وقد سرقا من الشمس ضياءها، ومن الورد نضارتها، وتماوج فيهما الشباب

واهتاج، فأغرى النظرات المؤمنة والملحدة على السواء، وأوقدا دنيا من الاشتباك اللذيذ يغازل أطيافها وإشعاعها، حتّى ترفع تلك العيون راياتها البيضاء بعد قليل!

اختلطت فيك المفاجأة والدهشة مع فرح الخلق وهموم الأبوّة والإبداع، تكهنت حيرة تجوب عقلك وتسقط في فراغ مغزليّ، فتبلور إحساس بالسكر وفقدان الوعي والابحار في ملكوت الأعماق.

هل هتكت روحك رقيّات رصدتها آلهة موكولة بالمجازفة الفائقة السمو، عن معايير البشر السائمة...؟

جعلته الرغبات الهائمة يشعر بألق خاصّ، لم يجرّبه من قبل، فانداحت موسيقى الكلمات مشبعة بطوفان السحر والياسمين، ففاض عقوداً من المحار المحدودب على لآلئ من العتاب والندم، فلم يتمالك نفسه وقد أضحت حقيقة الخلق عارية من زيف الأوهام بين يديه، وانزوت النيّات الخبيثة.... والمسؤوليّة معاً، فانتابته رعشة جنائزيّة، جعلته يتساءل بتضرع أبويّ شفّاف:

- إيه يا صغيرتي الواهمة الجامحة، أمّا آن لك أن تستريحي وتريحيني. . . ؟ فأنا مشفق عليك من نفسي أولاً، تتوسّدين كفّيك المشتعلتين بالحرارة والأماني، ولا تبالين بسطو الرجال إذا عشقوا. . . . ، وعيناك الشرهتان لا تستقران في مكان مثلما اللبؤة المكلومة، بينما شفتاك تأكلان بعضهما فتفجران لدى المحرومين شهوة القضم المبرمج. . . ، وأكاد أسمع حمحمات خيول تقذفها حشرجات في صدرك المتخم بالأمنيات، فتحطم بسنابكها أحلامك الهشة، كقلبي المعنّى بالحريّة دون أمل-

اقشعر بدني حين سمعت ما قلتِه، ربما دون إرادة منّي، هل كنت يقيناً حراً. . . ؟ ثمّ تراجعت أمام رغبة أحسستها تتواثب وتتفلّت للخروج من أسرك.

تزلزل جسده الذي كان قبل لحظات وحيداً كالسنديان. . . . ! عربدت في دمه آلام لم يألفها، وعصفت باستقراره القلق، فتذكر لسعات الكهرباء وهي تصعقه برمته، أينما وضعوا الصفيحة المكهربة، كي يقيء ذاكرته السريّة والمنسيّة.

آنئذ، فرّت من رأسك جنيّة فاتنة، جثت عند قدميك،

وراحت تشحذ منك الفاحشة، متسلحة بمور وثاتك، أشعلت أناملك بالفرح والنشوة، وجعلتك تتوهم أوجاع الطلق وتلت بين يديك آيات الولادة لحظات الخلق، حاول، بعد أن حطّ القدر مفاجأته التي فجّرت الارتباك الكبير في انسجامه المشوّه، حاول، دون جدوى الوقوف على حدود ملامحها، لعلها كانت غشاوة تجلّت فوق عينيه وتفكيره؟ تألم ورثى نفسه ثمّ رثاها وكليّاته في طريقها إلى استعادة الاستقرار والتوازن.

لم يتخيّل قط أن تصنع شهوته ومخيلته تلك الرائعة المزخرفة بالشعر والوهم، نوبة عالية من الجرأة أتاحت له إطلاق لسانه، وتحدّث بحسرة حامضة يقلقها اليأس.

- عذرائي قاسية الجمال، منذ قليل ولدت، فما بالك تختصرين سيرورة الحياة والمتعة، هل مللت خلوتنا وحوارنا الشيّق؟ فنفاذ صبرك يفسد كلّ شيء، أم تناسيت أنّني لم أخلقك من هون وعبث، أو لعبث...!!

تهادى إليه صوت يشقّ السماء، موشّى بأساطير أعماق النشوة المتغلغلة في الحرمان.... لم يكن صوتاً بشرياً، كان همساً

علوياً، وحياً مفعماً بالدهشة والحيرة.

ـ مولاي...؟ يا لبرودك... يا لصوفيّتك المثيرة... لا أدري منذ متى وحتّى قبل قليل كنت لا أزال أذرع كينونتك، أمخر فضاءاتك اللامحدودة، نفسك المتشظيّة، دماغك وأعضاءك، وأنا مستسلمة لمدارات ألفتها وتعايشت معها إلى أن استوقفتني استغاثات شلّت بنيتي، وضيّقت مساحات روحك في وجهي، وراحت تُقايض قناعاتي بأمنيات التمرد والخروج على الطاعة، وتشحذ العطف والرأفة منك.

خلاياك تعنّفني وتفتري عليّ بالدعة والكسل، وتجعلني أصدّق بأنّني تجليها العلوي، كي ألوم نفسي فأنبري أرقّ لحالك، وأقطع فلوات لا متناهية من الأحلام، وأمثل بين يديك، مثل عبد آبق غلب على أمره، ثمّ أراك الآن جاحداً بالنعمة، زاهداً بما ظللت عمرك ترجوني لأجله.

عبرت لحظة تموسقت فيها العذوبة والحريّة، تفجّرت فيها ينابيع من السكر والحبق والشمول؛ هل وضعتك أمام تحدّ مخيف؟

تحاول أن تسترجع ذاكرتك المسروقة والمتشرذمة من جميع محاورها، أترى أفلتت منك فراشات هائمة على وجهها. . . ؟ أيّ مستوى من التسيّب والعصيان هذا؟ وأيّ مساحات للخراب والضياع في ذلك الضمير الذي صاغه اللّه والطبيعة والناس، وأربعون عاماً من الضبط والربط. . . ؟

خطوط ملوّنة. . . محطّات إنذار مبكّر. . . إشارات حمراء ولوائح وعقوبات. . و. . . . و. . . . وأطبقت كفّه الضخمة على جبينه الواهن، فأحسّ بعصارات التعب تتدفّق كالشلال؛ أمّا وقد وقعت الواقعة وتسرّبت الممنوعات وتجسّدت أمامه متحدّية إيّاه أن يأخذ بأنفاسها حتّى الشهقة الأخيرة.

في لجّة البحث والتردّد عن وسائل الترويض، وإمكانات الردع وإيقاف زحف الحيرة والكآبة المتفشّية، بعد هذا الحوار، على أمل أن يرجع ذلك المارد الجميل إلى قمقمه. . .

اتّفق مع نفسه بعد سجال طويل. . . لا بدّ من الرفق والمحايلة كي لا يدع مناخ الخيبة والانطواء طاغياً كضريبة للعنف والحماقة، توقّر ودوزن أعصابه، طلا صوته بمسحة رحمانيّة وذلّ التسولين

وقال:

أيّتها الرقيقة المتشيّة، هل جئت إلى كلمة سواء. . . . ؟ جاء ردّها على غير ما توقّعت، لم تأخذها شفقة بك، قلبك يتوجّع من لسع الكلمات التي لا تليق بخالق مثلك؛ فالسخرية والدهشة المشوبة بالتوتر كانت رسالة بليغة واضحة حين قالت:

إنّني أعجب منك ومن أمثالك الشعراء، تنتحلون وقار الآلهة وجلالها، تخفضون جناح الذلّ والرحمة، تتملّقون، وتهرقون الدماء الحارّة حولنا، فتتأجّج فينا الحيويّة وتستفزّنا النخوة، فنندفع كي نبلغ بكم أقصى مبالغ اللّذّة التي تطمحون؛ على أمل أن تسمو إبداعاتكم وتتهذّب مشاعركم وتصطخب ثوانيكم بالقلق والبهجة حتّى حدود الانفجار، فالكارثة. . . التي. . . فإن توارينا كي لا تقضون في النفاس، تجلوكم الصحوة المزوّرة، وتلوذون بقواعد الحياء والوعي والرزانة، وتفاخرون بإبداعاتكم، متجاهلين دورنا ووجودنا. . . . إنّني روحك المتطلّعة إلى التألّق في المطلق، ثمّ قل لي ألست ربيبتك التي جسّدتها «جالاتيا» كي تركع أمامها، وترجوها أن تمرّر أصابعها الرشيقة على رفاتك، لتحيي فيك بشراً

وحشياً غير مسروج للّوائح والنظم التي تستعبدكم، وكنتم صانعيها بوعيكم العميق.

فأنا، وأنا ضميرك الحيّ الفرات... لا ذاك الذي يمنحك جواز مرور، كي تبلغ التماثل القطيعي لأجل الظهور المتأنّق الذي يخفي وارءه أكداس النفاق والزيف؛ فهل حقّاً تسعى لتتبرأ منّي وتعيدني إلى حظيرتك المسمومة....؟ وتتمنّى في ذات اللحظة أن لا أصدّقك أو أستمع إلى آرائك الرزينة، التي تستنكرها في دخيلتك..! بينما تتقنّع بها لتكمل منظومتك الأخلاقيّة والاجتماعيّة، لزوم حياتك العلنيّة الخادعة، ولسان حالك لا ينفكّ يحلّفني كي أظلّ خارجة على قوانينك الجائرة، ولا يفوّت فرصة يمكنه أن يهمس لي:

ليتك تظلين متمرّدة على حرّاسي المدجّجين بالقواعد والأنظمة واللاءات...!! لذلك قرّرت الإخلاص لضميرك الحقيقيّ، ولقرينك المعذّب القابع في عتمة أعماقك منذ آلاف السنين... فهل يسّرت أمري وهيّأت لي المناخ الذي يشرّد مكنوناتي، ويجعلني أتسامى، وأسمو، بك إلى عوالمي المستحيلة، والتي

تمنحك الفروق والجمال والإبداع، وتفاخر أنّه وحي شيطانك الذي يوحي إليك المعرفة والفضيلة والشعر، ولا يزال أمامنا أشواط من المعاناة حتّى أكونه. . . . !! ذلك كونك تعجز عن وصفه حقاً، وعن إدراك كنهه، وجلّ ما تستطيعه مقاربة أشياء منه، فمهما حاولت سيظلّ قاموسك أضعف، ولغتك أضيق من أن تحيط بجوهره.

لم يكن وقع الكلمة الطويلة سهلاً عليك، وحين أدركت أنّها لم تترك لك فرصة للمصالحة، أغمي عليك، ودخلت نفق الحالة والغيبوبة. . . .

رحت ترتعش كقشّة أمام المنجل، وتترنّح كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، في حين كانت هي تتراقص وتتقافز، تتعرّى، تتغاوى، وتشحنك بتوق للمخاطرة والمنازلة.

إنّها تستفزّ فحولته وشجاعته، وتسوقه إلى سديم عائم وضباب مخدّر يخترق العظام ويذهب الأبصار. . . . أخذ يتهاوى بالتتابع، كأعمدة إرم أمام العواصف التي دكّت جميع مقاوماته. . .

ها هي تنتصر به، وعليه، ولا مندوحة أمامه إلاّ أن ينحني هام الرعونة أمام عظمتها. . . . !! ذاك آخر قرار واع أدركه قبل السبات والاستسلام للزلازل التي راحت تتفجّر تباعاً في كينونته.

فرشت مشاعرك وإرادتك وأمنياتك سريراً مفتوحاً ولا محدوداً من الدفء والعبق والراحة.

بسطت يمينك مرحباً وحاضناً، وجعلت أناملك كوكبة الاستقبال والتشريف. . . والعرض، وهتافات تلهج بأنفاسك المضطربة، تردّد بابتهاج أفراح وقصائد الانتصار، والولادة.

الموت حياً

أشكّ أنّه الموت ذاته الذي أحسّ. . . . ، ربّما شيء يقاربه، وما هذه العاصفة من البرودة السوداء التي تسربت دون علم منّي، واستوطنت كامل جثّتي، وأحالت جسدي هيكلاً هشّاً لا يحتمل المزاج. . . إلاّ معلماً بارزاً لذلك الإحساس، فأنا لست ميّتاً إذاً. . . ولكنّني لست حيّاً كذلك؛ أتحرك. . . ؟! أو هي الأشياء التي تتحرك؛ بينما لا أجزم بأنّني غير ميّت.

أسمع وقع الحياة المشوّش. . . ، نعم. . . . إنّني أسمع أصداء أنفاسي المتلاحقة، وهي تصطدم بجدران رئتي مثلما إيقاع الأمواج التي لطمت صخور الميناء، باحتقار وقسوة، حين. . . . .

آه. . . . . آه. . . . . آه. . . . لا أريد أن أتذكّر أتذكّر. . . . !! أنا حيّ إذاً. . . ؛ ربّما صحوة تسبق الموت الحقيقي. . . لكنّني أتذكّر. . . . !! بل وأسمع الآن وقع الأمواج التي قذفها البحر في وجهي، يوم رحلت إلهام وأبحرت غرباً إلى بلاد القهوة كي تعيش، وأموت أنا. . . لعنة الله على القهوة. . .

فمن يومها هجرتها إلى الأبد، وتحوّلت إلى العرق ذاك الرائع الذي يمحو الفراصل بين الحياة والموت، بين الموت والموت. . . . حين أتذكّر الغول الأسود العملاق الذي خطف إلهام بمخالبه واتجه غرباً. . . . إلى طرف آخر من الدنيا. . . أو. . . . و. . . . .

إذاً، هو الغرب دوماً. . . . !!

حينها بصقت على البحر، بل لعنته من كلّ قلبي، وأقسمت أن لا أراه ما دمت حيّاً. . . الخائن الذي حمل كلّ جميل ونفيس عندنا، إلى بلاد نسمع بها، وأخرى لا نسمع. . .

وقتها شعرت أنّ الواحة الخضراء الوارفة التي ظللت أحلم بالتفيؤ تحتها واللجوء إليها، قد اقتلعت عنوة من قلبي ومن

ذاكرتي، وعرفت أنّ اليباس الذي أراه يزحف على كلّ أخضر في حياتنا وحولنا، اجتاحني فجأة، بعدما هرّبوا تلك الواحة من وجودي... لكن...!!

لماذا أقول هرّبوا....؟ فواقع الحال أنّهم أعدّوها وجهزوها على مهل، ومع وصول كلّ حوالة تنقط حروفها دولارات كانت إلهام تبتعد خطوة عنّي، فبعد اقتسامها بين أخواتها «القبضايات». والذين ادّعوا دفاعهم عن الشرف الرفيع، وأذاقوني «علقة» لن أنساها، وكيف أنساها وآثارها لا تزال ماثلة في وجهي منذ سنوات خمس- وأبوها الذي يفاخر بالقهوة المستوردة، خصيصاً له... حتّى أنّني أصبحت أشكّ باختصار أنّه يصرف كامل حصّته ثمناً لتلك القهوة؛ والأهم من ذلك تباهيهم بالإعلان عن وصول الحوالات من ابن ماجد السعيد، ذلك الولد الآبق الذي تعرفه قريتنا الصغيرة بأكملها، والأصح أنّها كانت تعرفه بـ علي أبي «.....»، إنّما وقد توالى وصول الحوالات إلى أهله، وأخذت ملامح التغيّر والنعمة تعلن عن نفسها في أحاديثهم، وألبستهم، وفي المضيف الذي بناه ماجد السعيد، فوق سطح داره

المسلح، وخصّه بدرج لولبيّ من الحديد المدهون بألوان فاقعة، أصفر، أحمر، أخضر، وكتب له أحدهم فوق بابه وبخطّ كوفيّ عبارة لا تشي بأيّ تواضع «الملك للّه»، وأضاء داره بالكهرباء بينما القرية لا تزال تغطّ بالعتمة، وانتشرت الروايات التي تتحدّث عن كرمه ودعواته وولائمه لعلية القوم... الحقيقة... لا أعرف، أنا المثقّف، الذي يزعم معرفة كلّ شيء بقدر متى... وكيف...؟ عاد اسم ماجد السعيد للتداول والظهور...؛ فالكلّ يعرفه، ووعيناه ماجد البعيد لبعد الناس عنه، وهو بينهم، ليرتبط بعد هذا الظهور المفاجئ باسم ولده علي، فتناقله الناس أبا علي...

لكنّ ارتباط علي الأوضح والأقوى بالحوالة والدولار، أعطاه تميّزاً وتمايزاً عن أبيه، فالبعض كان يتندّر قبل أن يتنازل هذا البعض عن تندره، بل ويستنكره، كان ذاك البعض يلقبه بـ«علي دولار»، أو «علي حوالة»...

قريتنا لا تصدّق أن يدب في عالمها حدث أو خبر كي يظلّ يدور في بيوتها وأزمتها، منتقلاً من لسان إلى لسان ـ مثل زوابع الغبار التي لا تفارق طرقاتها شهوراً كاملة ـ إلى أن يلفه حدث آخر، إذ

يكفي أن يقع في أذن امرأة واحدة، حتّى يصبح على صهوة كلّ لسان، وفي كلّ أذن... اللّه.... اللّه.... يا أبا «.....».

الذي أدهشني وطيّر عقلي، الصورة الجديدة التي راحت النسوة يحكنها لعلي، بديلة عن صورته الحقيقية، والقصص التي لا أساس لها، تحقن في مسامع الفتيات الحالمات بالزواج...؛ والأغرب من كلّ هذا هو سرقة ملامح الصورة الجديدة لعلي أبي «.....» من صورة الولد طارق، الذي ولد لأحمد الباير، من أمّ لبنانيّة قُبَيل الحرب بقليل، ودخل عالم قريتنا، وهيمن على أخبارها بعد عودته وأبيه بُعيد هجرة والدته وأهلها إلى فرنسا وطلاقها لأحمد الباير، الطلاق الذي أثار موجة من الاستهجان والسخرية حيث لم تعرف قريتنا من قبل زواجاً ينتهي بطلاق الرجل الذي يجيب حين يسأل:

- أي واللّه تركتنا ابنة الحرام، ولم أكن أصدّق أنّها ستتخلّى عن ابنها بهذه السهولة... واللّه واللّه... يا جماعة كانت مبسوطة معي، وعشت سنتين هما كلّ عمري بعد أن جعلتني زوجاً لها

وتركت الخدمة في بيت أهلها، شريطة أن تكون العصمة بيدها، وأن لا أتدخل بشؤونها ولا أختلط بضيوفها..

لا يبدو أنّ أحمد الباير أراد الصمت، لكنّه حاول التقاط أنفاسه، وابتلاع ريقه، لكأنّه تذكّر طعماً مفقوداً، فأثارت أقواله دهشة الحاضرين، واستفزّت عبد الله الدقر...

- ورضيت «ولاه»..

- أي والله رضيت، «ليش لأ»، يازلمه يلعن دين الحرب، والله كنت في الجنة...

نبقت عيون الجميع حسداً واستغراباً، لكنّ محمّد الأعور راح يتلمّظ ويهرش بين فخذيه، ورغب أن يعرف كيف تكون تلك الجنّة، لذلك قاطعه:

- «ولك» كيف يعني الجنّة... آه... قلْ..؟

تكاثفت الأريحيّة على ملامح أحمد الباير وحديثه وحركاته، وانساب بفطريّة رقراقة.

- يا جماعة... يا جماعة كانت تعدّلي المائدة كلّ يوم، وهناك

يأكلون على الطاولات. أقصد كانت تأمر خدمها بإعدادها، و «داعيكم» يأكل ما استطاع من اللحم والسمك والفاكهة، و«أكرع» ما أقدر عليه من المشروبات التي لا أعرف أسماءها وأصنافها «مو . . . عرق تين وما بعرف إيش».

محمود العبد حشري بطبعه لا ينتظر بل يستحثّه . . . ويدفعه:

أكمل . . . أكمل . . . . يخرب بيت أبيك على «هالعيشة» وبعدين إيه.

- «بعدين» آكل وأشرب حتّى «أنسطح»، ثمّ آخذ مشواراً على الشاطئ وأسبح في البحر حتّى يأتي الليل، «وبعدها تعال شوف البسط» . .

عند هذا الحدّ تختلط الكلمات القذرة، التي تُحكى في جلسة مبتذلة، مع الصيحات التي تطالب بالمزيد، وتتحفّز التأوهات، وتضجّ القعدة بطرق الأكفّ ببعضها في فوضى لا نهاية لها:

- «إيه . . . أي ولك . . . وبعدين إيش تشوف . . . ؟»

عيون الجميع تبحث عن شيء ما في موضع محدّد من هيكل

أحمد الباير الضخم؛ لكنّ أبا طارق تعتريه الأبوّة العارمة فجأة... يدني ولده طارق إلى صدره حتّى يكاد يهصره، يقبله بشغف مسموع على خديه، فيسترجع رائحة تلك الليالي الصاخبة، التي يحرص على الاحتفاظ بتفاصيلها وأسرارها لنفسه.... يحتدّ مزاجه ويرفع عقيرته بالصراخ في وجوه أصدقائه المنشنجين.

- «لحد هون وبس....»

لا تنسوا أن سليمة لا تزال أمّ طارق، وحرام عليّ إنشاء أسرارها.

عبد الله الدقر، وحيث التصقت هذه الكنية به لشدّة ما اشتهر به من «وقار»، لم تعجبه هذه النهاية، أشهر صوته محتداً وساخراً.

- حتّى بعد أن طلقتك....؟! وتركتك وابنك دون أن تعطيكما ليرة لبنانيّة واحدة... إخسْ...!!.

أبو طارق الذي عانى ما عانى خلال الأيّام الأولى للحرب،

امتصّ الطعنة وأجاب منهياً هذه الجلسة الخاسرة:

- هي حرّة يا شباب... المهم أنّني عشت أجمل سنوات عمري معها، وهذا دليلي أمامكم، ودفع طارق كي يتقدّم خطوة بين يديه..

أمّا وقد أصبح طارق محور الحديث، خرس الجميع وربما كان أكثرهم على مضض، بعد أن اندفعت تصوراتهم إلى حدّ حضور فيلم خاص بالكلمات...

خمدت التأوهات، وكبتت الحرقصات الخبيثة، وناست التأففات، بينما تعالت الصلوات على النبيّ متلاحقة ومعلنة عن إعجابها بجمال الصبيّ الرائع.

هنا قيّض الله جملة طيّبة على لسان عبد الله الدقر، وضعت حداً للحديث برمته:

- ابن نعيم يا عمي.....!!.

لستين خلت ظلّت نساء القريّة وعجائزها، وأينما يصادفن طارقاً يدنينه من صدورهنّ ويتحيّنّ الفرص لضمه وتقبيله، ثمّ

جنوح
دار سرق الإسراء

يتركنه مودّعاً بالدعاءات والتعاويذ الرخصة الدارجة، ويتعجّبن، بعد شتم أمّه شتائم تلحقها إلى فرنسا وتصل للجدّ السابع . . . كيف طاوعها قلبها على ترك ولد كهذا . . . وبالرغم من مظاهر الفقر على هيأته، والبارزة في لون وجهه وعينيه، ظلّ طارق يزداد وسامة كلّ عام . . . وحالما تقاطرت حولات أبي «. . . . . » بالوصول، غدت هي محور التقوّلات والأخبار، تراجع طارق إلى دائرة النسيان، وأصبحت رائحة القهوة تفوح من الأفواه والأحاديث في السهرات وتجمعات النسوة مساء أمام عتبات الدور، وفي مضيف أبي علي، يحتسون القهوة، ويقتعدون السجّاد، ويتمتّعون بالفرجة على التلفاز، ويهيلون المدائح والثناء على الولد البار بأهله وأهل قريته .

الرسالة التي أشعلت البلبلة وعادت بطارق إلى دائرة الضوء مرّة أخرى . . . هي تلك التي طلب فيها عليّ من أبيه أن يخطب له أجمل جميلات القرية . . . !! حينها شُغل الناس وراحت الأمّهات يثنين ويباركن علي حوالة، ويصفنه بأوصاف ينقلنها دون «رتوش» أو إضافات من طارق؛ مع العلم أنّ معظمهنّ لمّا ينسين

جنوة
بوابة سبق الإصدار

بعد ملامح علي الدامغة، وذلك لصغر قريتنا وقلّة سكّانها.

أمّا أن يتنكّر الجميع لما يعرفون، ويتجاهلون النكات التي ترددّت كثيراً عقب ركوبه البحر وهروبه غرباً، وكلّها تقول:

إنّ علياً سيصل إلى الطرف الآخر من المحيط، لأنّ البحر لا يستطيع ابتلاعه وهضمه؛ وينسى أهل القرية علياً وأباه، حتّى وصول أول حوالة بريديّة، وبدأت صورته تتغيّر مع كلّ حوالة تصل، وتأخذ أبعاداً جديدة على ألسنة الأمّهات، وبناتهنّ، حتّى قبل أن يعلن عن نيّته بالزواج من فتاة بعينها. . . . ؛ أثناءها كنت لا أزال حيّاً. . . أرى وأسمع وأفهم. . . وأسخر في سرّي من تغيّرات قريتنا وأخلاق ومفاهيم أهلها.

كنت في أوج تمتّعي بالحياة. . . أعيش وأفكّر وأكتب الشعر منتشياً ومعتداً بنفسي، فأنا أرفع موظّف في قريتنا، على قلّتهم. والوحيد الذي يحمل شهادة جامعيّة.

إلهامي تقرأ أشعاري، وتفاخر بي على مسامع الصبايا، تلك التي أنشرها، فأنا خطيب إلهام منذ تلك «العلقة» التي كلّفتني

جنوة
جنوة سبق الإصرار

أيضاً موازنة شهرين كاملين، ثمناً لأكبر تيس في القرية؛ ذبحته على شرف أبيها وإخواتها. . . لا أخفيكم أنّ الحياة كانت كلّها لنا. . . نعمل بتمهّل وصبر على صياغة مستقبلنا، ولم ينتبني أيّ قلق أو خوف على إلهام المتعلمة. . . حتّى بعد تقاطر الحوالات من علي أبي «. . . . . »، ومعرفتي بنيته الزواج من أجمل فتيات القرية، فإلهام مخطوبة لي منذ سنوات. . . !! إنّما، وقد وصل الأمر أن تسألني إلهام عن علي. . . انتفض كياني كلّه، كأنّني شممت رائحة فجيعة وشيكة الوقوع، اخترقني هلع مفاجئ دفعني للضحك الهستيري المتواصل، ممّا أرغم إلهام على مشاركتي قدراً منه، دون أن تعرف السبب وراء ذلك.

لم يرق لي برودها واستخفافها، لحظة أبلغتها أنّ عليّاً لم يحصل على الشهادة الابتدائيّة، وبالغت في وصف دمامته ونذالته التي تحدّث عنها الجميع في قريتنا، والقرى المجاورة. . . وقهرني تجاهلها لما حسبته البرهان الخالد والقاطع على انحطاطه، لأنّه حتّى هروبه، ظلّ الناس ينادونه بـ علي أبي «. . . . . »، وفراره جاء بعد أن هُدر دمه. . . . !!.

ظننت أنّني بلّغت الرسالة واسترحت. . . لكنّ استقبالها لكلّ ذلك جاء مخيّباً للآمال. . . . بعدها أحسست فعلاً أنّ الحياة التي نعيش بدأت تتّشح بالسواد، وعرفت أنّ النار بدأت تلفح ذقني بلهيبها. . . !!.

صعقت بعد يومين، من هذا التاريخ، حين علمت أنّ ماجد السعيد تقدّم يخطب إلهام، وكالة عن ابنه عليّ، وأصبحت الوجوه ذات الوجوه التي فرحت لي ورحّبت بي، وفاخرت بارتباطها بالنسب بأوك مثقّف بالقرية. . . . الوجوه إيّاها أصبحت تشيح عنّي حين أقابلها، ولا تسمعني. . . وتُبعد إلهام بكلّ الوسائل والطرق عن مجلسي. . . وعن طريقي. . . ولا تلقي بالاً لأقوالي وأفكاري. . . !!.

عندها بدأت أتلمّس أطرافي ورأسي، لأتأكّد أنّ الحياة لا تزال تجري فيها، مخافة أن يكون الصقيع قد التهمها على غفلة منّي. . . . وجاء طغيان الموت عندما خبّرني أخوتها «القبضايات» بين أن أقبل ضعف المهر الذي دفعت، أو. . . . أروح. . . أ. . . .

ابتعدت إلهام عنّي . . . ، هجرت الشعر، أو هجرني هو، والله لا أعرف، ومع كلّ ذلك ظلّ لدي أملٌ أنّ هناك قدراً من الهواء يمكنني تنفسه، إلى اليوم الذي غصّ فيه فضاء قريتنا بأصوات المكبرات الناعقة . . . تدعو الناس لحظور حفلة خطوبة إلهام وتجهيزها للسفر إلى حيث يحلم الكثيرون .

أخوتها «القبضايات» يفتلون شواربهم تيهاً وتحدّياً أمامها، وأمام الجميع . . ، وأبوها يتبختر بقفطانه المقلّم الزاهي وعقاله، ويشمخ بأنفه إلى السماء، وجيوبه حبلى بالأوراق الخضراء . . . !! .

لحظتها أدركت أنّني دخلت ملكوت الموت، والعجز عن فهم أيّ شيء، وأحسست أنّني فقدت القدرة على القراءة والكتابة . . . !! لكن، ومع كلّ ذلك، لا أزال أتحرك . . . ربّما لا أعرف أنّني أتحرك فعلاً . . . . إذاً فأنا حيٌّ في ملكوت الموت الشامل . . . لأنّني على الأقل أحسّ بأنفاسي المتلاحقة تصطدم بجدران رئتيّ، فترتدّ إيقاعاً يشلّني . . . . مثلما صدى الأمواج التي ضربت صخور الميناء يوم رحلت إلهام إلى الغرب . . .

جنوح
نحو سبق الإصرار

وأبعدها البحر . . عندها بصقت على البحر الذي اقتلع آخر وأغلى ما أملك من وجودي إلى الأبد. . . .

جنوة
بحوة سبق الإصرار

اللّمبةُ اللّعينةُ

....عندما يفقّس الرعب في النفوس، يتغيّر إيقاع الحياة...

الأشياء تتلوّن بغير ألوانها، ويصبح للأخطاء، مهما صغرت، أثماناً باهظة.. ربّما الموت على رأسها...!!

شيء ما يثير الفزع . . . ، ويزرع الرعب في كلّ حيّز، مهما تصاغر، حتّى في بؤبؤ العين . . . . ؛ يطبع الحذر على كلّ شيء، الطبيعة الفجّة، مفردات الزمن الذي يمضي دون أن يلقي بالاً لأحد . . . . ، بقايا الإنسان المتآكل من أعماقه، السماء التي تتعالى خجلاً من روائح الآثام والجرائم.

وفي «أمّ النعيم»، لاحظ القليل من الناس الذعر الذي حطّ

على الدجاج باكراً، والهيجان الذي طبع قراره المتواصل على غير هدى، فلا يطمئنّ إلى مكان بعينه.

أمّا الأعداد غير المألوفة من القطط، فكانت تحمل صغارها بأسنانها، وتبدّل أمكنتها، والخوف والحيرة بادية على سلوكها المضطرب، الطيور والعصافير دهمت البيوت على غير عادتها، وعلى غير إرادة منها، تحاشياً لتأرجح غير مأمون في دوّامات شعرت بها قادمة لا محالة، وفوجئت القرية بالأبقار التي أجبرت راعيها على الرجعة، قبل الأوان قسراً، وحالما أطلّت خرجت على أنظمة القطيع، وكادت أن تصرع أكثر من طفل، أثناء عبورها المجنون أزقّة القرية وطرقاتها.

وعرفنا أنّه قبل قليل أخطأ ذئبان وهاجما بيتاً متطرّفاً، وكادا أن يفترسا ربّة البيت التي كانت تؤمّن على فراخها.

قلّة من الناس تتراكض في الشوارع، جلّها عائد إلى القرية يبحث عن أمن ودفء... وبعدما راحت الرياح تشتدّ وتحوّم في حواري القرية وحولها وتزرع الخراب والارتباك أنّى تصيب هشمت الكثير من الأبواب والشبابيك بصفعاتها، وأحالتها إلى

قطع من الخشب الذي لا يصلح إلاّ غذاء للنيران، وقلبت عالم البيوت إلى فوضى عارمة، إنّها حالة مفتوحة الاحتمالات إذاً. . . !!.

حالة نادرة من عدم الاستقرار والترقّب لحدث كبير، لم تشهده القرية خلال تاريخها الطويل. . . . ، ربّما دليله الأوضح ما عبّر عنه سلوك المخلوقات قاطبة. . . .

العاصفة. . . ! قالها كلّ من تفرّس وجه السماء الكالح. . ، فنحن في مطلع «المربعانيّة»، والبرد الذي يصكّ الأسنان قرع الأبواب منذ حين. . . ، لكنّ الجفاف زاد الطبيعة لؤماً، والرياح المشبعة بالغبار تطفئ عيون النهار، حتّى صارت الرؤية التي تتجاوز الأنف متعذّرة. . . إلاّ لمن امتلك بصيرة نافذة، وبصراً حاداً.

في العيون قدر من الرعب، بات مألوفاً ومتعايشاً. . . ، لكنّ رعباً ما، لا يعرفه إلاّ من يكابده، واكتوى بناره، حطّ رحاله في عيني فاطمة، التي مضت ساعة كاملة تلوب في أرجاء البيت، وقد ظلّ إلى الآن في منأى عن التأثر بما يجري خارجه. . .

لكنّ الورقة التي تسلّمها أحمد من طارق مجهول. . . ، فجّرت العاصفة في كيانها، وأضافت كآبة السماء خوفاً إلى خوفها، وأوقعت الاضطراب في بيتها. . .

الحيرة والقلق يجوبان بحريّة تامة تضاريس وجه أحمد النافرة، بينما الارتباك والتردّد في توازنه وحركاته ظاهران للعيان.

انسحب إلى مكتبه هرباً من نظرات فاطمة التي تخترقه إلى الأعماق، فلا تترك خليّة مستقرّة، جاهلاً أنّ مأساته مفضوحة إلى حدّ دفع فاطمة إلى اقتحام خلوته، كي تضع حداً لتلك الآلام التي ما عادت تحتمل. .

احتضنت راحتيه بكفّيها، فتفجّرت ينابيع الدفء والشجاعة. لتعيد توازنه المفقود إلى سابق عهده، فيجيبها بعد جدل النظرات وتساؤلاتها:

- إنّهم يريدونني. . . وقد يجيئون في أيّة لحظة. . . ولا بدّ من. . . ؟!.

صمت طويل وثقيل تحصّنت به فاطمة على غير عادتها، حيث كانت تهطل ردودها قبل أن يتمّ كلماته. . . إنّها تعرف مايدور في نفسه، ونظراتها المفعمة بالألم والعتاب تجلده بسياط التأنيب وتستفزّ قلقه وخوفه إلى حدودهما القصوى.

لم يكن مكراً من فاطمة، ذاك الصمت والشرود. . . ، لقد جاء الخبر صاعقاً أحيا ذكرياتها الميّتة، ونكأ جروح مأساتها الأولى. . . منها هي التفاصيل القاتلة تنزف من جديد، حتّى أنّها ترى تعبها وسهرها وحرمانها، وكلّ ما كابدت يبعث أمامها. . . وتتذكّر كم من المرّات صرخت في وحدتها:

«كيف تتركني وحيدة مع طفل وحيد نواجه كلّ هذا الشرّ في العالم. . . !!؟»

بينما هي الآن تعيل أسرة مؤلفة من ستّة أطفال، فكيف ستعيش إذا أخذوه مرّة ثانية. . . ؟.

لا وقت للّوم والعتاب. . . ليس أمامها إلاّ الإذعان والقبول بأهون الشرور. . . ! فالهرب موت من نوع آخر، لكنّ الآمال لا

جنود
صوت سبق الإصرار

تموت فيه . . . !.

في جلستهما نحى الحوار منحى جدّياً كاملاً، وتناول طرائق اللقاء وأمكنته والسلوك المترتّب على كلّ منهما، أثناء المداهمة، منافذ الهرب، وكيفيّة إحياء المواعيد بعد ضربها؛ واتّفقا أن يكون المصباح الغربيّ المضاء، والذي ينير أفقاً واسعاً أمامه، علاّماً وحيداً يمنحه الأذن لتحقيق اللقاء في الواحدة صباحاً.

بعدها خرج أحمد يحمل حياته واستقراره ومصير بيته على كتفيه، حيث ستدخل خططهما برسم التنفيذ عند الساعة الثامنة من مساء اليوم، إذا لم يجدّ أيّ جديد، وحينها يصبح للدقائق والثواني أثماناً مختلفة.

الساعات اللاحقة جاءت مكتظّة بالمهام، طغت فيها العصبيّة على سلوك فاطمة، وفي ردودها على تساؤلات الأولاد عن أسباب دأبها الطارئ، لتغيير ملامح كثيرة في البيت، وسرّ انهماكها في مراقبة الطريق وسؤالها الدائم عن ألوان لوحات السيّارات العابرة، وأرقامها، لكنّ الحادية عشرة دقّت، والأولاد يغطون بنوم مقنع . . .

جنود
موج سبق الإصرار

دارت فاطمة حول الدار للمرّة الرابعة، وأمضت بعض الدقائق في مراقبة الحركة على الطرق المحيطة من على سطح الدار، وحالما تأكّدت من توهج اللمبة الغربيّة هرولت نفسها إلى الاستقرار، حين راحت قطرات المطر تتأرجح في حبائل الرياح المتسارعة، وتسقط منهكة على الأرض؛ أحكمت إغلاق الأبواب والنوافذ وأطلقت صوت فيروز يغازل اللهب المتأجّج في المدفأة، وأخذت أمواج الدفء، تغمر جسد فاطمة الملتف حولها، وهو في طريقه للتخلّص من عقابيل الخوف والتعب، تاركاً اليقظة وراءه باستعجال لتحطّ ابتسامة خضراء ناعمة باسترخاء على شفتيها المستسلمتين لمروج الدفء والنور، التي ستحضن لقاءها مع رفيق العمر.

بعدها، تدوزن إيقاع القطرات، وآفاق ملائكيّة من سحر فيروز، أخذها إلى عوالم الأحلام الملوّنة بالسعادة والأمان، وغيّباها عن الهيجان الذي مزّق أوصال الطبيعة فيما بعد.

في الساعات التي سبقت لجوءه إلى مقهى الكمال، وسط المدينة تزجية لما تبقّى من وقت، حقق أحمد الكثير، وأخذ في

وضع تصوّر منطقيّ لظرفه الراهن، وعندما استعرض حياته إلى هذه اللحظة، هالته السلسلة الطويلة من الآلام والملاحقات والسجون، وها هو يدخل نفقاً جديداً لا يعرف إلى أين يفضي به.

يجهل كم من الوقت استغرقت تداعياته وتصوراته ورسم خططه، حين فاجأته موجات البرد الشديد التي تسلّلت إثر مغادرة الزبائن وإطفاء الأنوار وجلبة الندل، وهم يجمعون بقايا الطلبات، ويعيدون تنظيم الكراسي والطاولات...

لحظتها تلفّع كوفيته، ولفّ معطفه حول جسده جيّداً، وأدار محرك درّاجته بمشقّة، واتّجه إلى المخبز الآليّ ليبتاع ربطتين من الخبز، ويبدأ أولى خطواته في التجربة الواعدة.

عنف الطبيعة المتصاعد يصعّد من اطمئنانه، ويجعل الملاحقة والمراقبة تتقلّص إلى حدودهما الدنيا، ففي مثل هذه العاصفة تتوقف الجيوش عن القتال، فكيف بالأجهزة...؟!.

إنّه زمن اللقاء والقدر، يلقيه في أتون التجربة..، قلبه يخفق

بشدّة، والمسافة التي لا تتعدّى الدقائق الخمس تتجاوز أضعاف ذلك، لأنّ الأمطار الغزيرة والرياح العاتية ترغمه على التباطؤ، وتكاد تطيح به عن الطريق الزلقة، مستسلماً لأشجانه التي أسعفته بصور لقاءاته مع فاطمة قبل الزواج، فأدخلت السرور إلى نفسه حين تذكّر براءتها في التحايل على الظروف والعوائق الطارئة، ودقّتها في التقيّد بشروط الاتفاق؛ واطمأنّ إلى تأكيده أكثر من مرّة للحقيقة التي يؤمن بها، من أن خطأً صغيراً كفيل أن يوقع كارثة.

هالات من النور تسبح في بحر من المطر والعتمة... ؛ هكذا بدت القرية من بعيد، وانعدام الحركة على هذه الطريق الدوليّة أمّن قدراً من الراحة لنفسه المنهكة، ولا شكّ أنّ أهل القرية ينامون على أحلام السنة الخيّرة، والمواسم الوفيرة، وحالما انعطف في الممرّ الذي سيضعه في مكان يتيح له ملاحظة مصباح الإشارة بسهولة... سرت في أوصاله رجفة أيقظت عنده مشاعر الأبوّة والتحدّي.

أطفأ محرك الدراجة، «وركنها» في موقع آمن، مشى

خطوات إلى مرصده، ولم تفارقه أطياف اللحظات القادمة التي تعده بلذة خاصة، إذا ما نجح في اغتصاب الساعات الباقية من عيون ملاحقيه.

قطيرات الماء الراشحة من شاربيه تستلقي بين شفتيه بهدوء، لكأنّه يألف الثقة والدعة منذ زمن، يمتصّها بتلذّذ غريب...

لكنّ ومضة وعي راهنة اقتحمته على حين غرّة... عطبت شريط ذكرياته وتصوراته، وجمّدت أريحيته واسترساله، فامتقعت شجونه بالأسى، وأصبح مذاق الثواني حنظلاً... أحسّ بالشلل يغتال قلبه وتفكيره وأطرافه معاً، عندما ارتدّت نظرته المرسلة مشفوعة بالأمل، بعيد ارتطامها بكتل الظلمة الرازحة على داره، وحولها، دون أن يلمح أثراً لضوء مهما هزل... حينها استسلم للإحباط، ولم يقو على التفكير بأيّ شيء كان.

امتدّ الشلل ذاك فترة لا يعلم طولها، أحسّها توثق عالمه كلّه، إلى أن تسربت الشكوك بصدق نظرته الأولى.

جنون
جنون سبق الإصرار

دعك عينيه مرّة إثر مرّة، علّها تتغيّر حقائق الوهلة الأولى، لكن الظلام مع ذلك ظل الحقيقة الوحيدة الماثلة أمامه وحوله، حتّى أنّه لم ير النور المنبعث من القرية في مواجهته.

هنا برز البرد حقيقة ثانية، تهزّ جثّته الثقيلة، وتلقيها في الوهن واليأس الذي تلبّسه دون مشقّة... هل اغتيلت أحلامه من الليلة الأولى، وبدأت المواجهة على أشدّها...؟.

الأسئلة المتهافتة تنفلت من سيطرته، ولا تنتظر الأجوبة، ولا تسمح بالحوار؛ لكنّه يعاود ضبط اتجاهها ويقف على سؤاله الأخير، بحزم:

(هل أعود خائباً...؟!).

تنفّس الأمل مرّة أخرى، لملم فلوله المشتّتة، وهتف في دخيلته:

(لن أرجع قبل أن أقف على التطورات اللاحقة لمغادرتي، ولن أسمح للديدان المختبئة في شقوق الليل أن تنعم بمراقبة مجّانيّة لي)..

جنوة
جنوة سبق الإصرار

دسّ يده في سرواله الداخليّ، تفقد «محاشمه»، ودفّأها بعد أن جمّدها البرد، فابتلّت برطوبة ساخنة، وأحسّ أنّ البرد استفزّ «الروماتيزم» المستوطن في مفاصله، مع ذلك لا مفرّ من السير بهمّة إلى النهاية... فربّما أضاءت اللّمبة فجأة...، ربّما تحقّقت المعجزة..

أصابه الهلع حين تفقّد مكمنه، ولاحظ أنّه مكشوف للمارة تماماً، تقدّم إلى نقطة منحته المزيد من التماسك، وأتاحت له فرصة للمراقبة الأفضل، وجعلته يتمتع بتركيز أوضح، وتكثيف دماغيّ أدق، وتسامى صفاؤه وانتباهه إلى الذروة...، فهو الآن قادر على ضبط حركة الحشرات، وكلّ نأمة أو همسة في محيطه، والأفق الذي يلف داره.

صعّد آلامه التي رافقت دنو أطرافه من التجمّد والحذر، وخلالها اخترق مواء هرّ ممغوص حرمة الصمت الشامل...! فانشدّت أعصابه وأحاسيسه كالأوتار، وتحفّز كالنابض المضغوط، كي يستوعب هذا الحدث الشاذ، وبعدما فشل في إشعال سيجارة، في شروط الحذر الكليّ، تحايل على نفسه وخوفه،

مقنعاً إيّاها بأنّه المطر الذي بلّل العلبة هي الأخرى.

الأرجح أنّ ساعات مرّت وهو يقاوم فشله وعجزه وجنونه، سجالات مفتوحة، سجّل فيها انتصارات ذات شأن وتكبّد خسائر وهزائم كبرى، وضعته في خضمّ غيبوبة شلّته عن المبادرة، وعن متابعة فكرة واحدة إلى نهاياتها المنطقية. . . . فجأة دوّى صوت المؤذّن كالانفجار، اللّه أكبر، إنّ الفجر. . . أشعل قدرته على لملمة شجاعته التائهة، ربط جأشه المنحل وحزم أعصابه الشاردة، وحقّق توازناً في أفكاره، ممسكاً بعنق نفسه وهزّها بسؤالها عمّا سيفعله الآن.

وسّع مساحات إرادته، وحدّد زمان المراقبة للمحيط والأفق، واللحظة بوعي ملموس، استعرض مخطّطه الذي يحدّد آذان الفجر، نهاية لعمليات اليوم. . . فالقرية تنهض شيئاً فشيئاً، وينتهك أهلها السكون الموحش بلا رحمة. . . وسيكون اكتشافه من قبل الساعين إلى الصلاة، والغادين إلى المدينة، والعاصمة، نكسة خطيرة تلحق الأذى بسمعته وتاريخه.

وقتاً طويلاً استغرقت مناقشته لإمكانيّة اقتحام بيته والتردّد

جنوة
بحوث سبق الإصرار

الذي أحاطها . . . أنوار الصباح ملأت الفراغ الأسود، الذي يكتنفه، مما جعله يحزم أمره على متابعة ما جاء لأجله.

الأمطار توقفت، ولم يشعر متى سكنت الرياح، ولاح بيته بوضوح، تحيط به برك المياه التي بدت كأنها تستحم بشفق الصباح.

نهض وقاد دراجته بهدوء وحذر . . . ، تفقّد مواقع أقدامه، وقد اكتسب صلابة وثباتاً، اقتحمته الهواجس حول الأسباب التي شتت فاطمة عن إنارة المصباح، أوقف دراجته في مكانها المعهود، وفتح باب الدار بيقظة . . . ، اجتاز العتبة بارتياح، خطا خطوتين قبل أن يكاد يلوي هارباً حين قفز كلب من أمامه مذعوراً، كان مختبئاً من العاصفة خلف الباب.

ارتجّ من هول الصدمة، لكنه لم يصل إلى حدّ ارتكاب خطأ قاتل، توقف لحظات عن الحركة والتفكير، استردّ توازنه ووعيه سريعاً، وتابع طريقه إلى غرفة فاطمة، وحين لمس الدعّة والأريحيّة اللتان تكتنفان البيت وأهله، وقع في شرك الحيرة والشكّ، وبصعوبة انتزع فاطمة من نوم عميق مريح، قرب المدفأة

المتّقدة.

تمطّت فاطمة بتثاقل، وأطلقت تثاؤباً طويلاً، فتحت عينيها بدلّ وغنج، وآثار ابتسامة خضراء، لمّا تزل على محيّاها... وبعاديّة خالية من أيّ اندهاش، أو خبث، سألته عن الونت، قبل أن يقتحم النهار عينيها الذابلتين.

هنا، لم تخنها بداهتها في الانتقال إلى الهجوم وإمطاره وابلاً من اللّوم والتقريع والأسئلة، عن أسباب تأخره، لاطية خلف براءة طارئة ومزوّرة.... !! وفي حمى الجدال الذي سادته الفوضى والمقاطعة... لم تذعن لاتهاماته لها باللامبالاة والتقصير، وأقسمت بجديّة لا تشوبها المراوغة:

أنّها أضاءت اللمبة الغربيّة، وتأكّدت ثلاث مرّات، على الأقل، من توهّجها، قبل أن تسرقها الأحلام عنوة... ولأنّ الريبة بصدق فاطمة تحاصر أحمد وتنخر كيانه، استوقفها على قدميها وأخذ بيدها، وهي في حالة من الاستغراب والدهشة، كي يثبت صحة اتهاماته لها، ويريها اللمبة المطفأة.

جاءت المفاجأة صاعقة، وبعيدة عن التصديق والوصف، عندما لاحظا حطام اللمبة، تحت أقدامهما، وعرفا السرّ في تحطّمها.

تبادلا الابتسام، ونظرات الدهشة، والاعتذار والعتب، وتخاصرا، في طريقهما إلى غرفتهما، لينعما بما تيسّر لهما من وقت، قبل أن يتوارى من جديد.

جنوح
محور سبق الإصرار

الفهرس

جنون دون سبق الإصرار..... 9

موت بالعملة الصعبة..... 23

راية للنصر والبراءة والموت..... 37

حوار عقيم..... 49

الموت حيّاً..... 67

اللّعبة اللّعينة..... 85

من الأعمال الصادرة للمؤلف

- هل كان آخر الشرفاء... مجموعة قصصية... 1995

تقدّم الجميع وأحاطوه، دون أن نشعر أنه فوجئ بهم، أو حاول الهروب منهم، بل أذهل الجميع لهدوئه، حيث لم يُسمع صوت أو نأمة تخدش هذا الصمت الشامل، أذهل الأرض التي يقف عليها، والنهار الذي يفضح كل شيء ويحتضن كل هذا العري والجنون، وبعد أن أدخلوه إلى السيارة أحكموا إغلاق الأبواب، بأقفال خارجية،وبلا تردد، أو إعاقات، انطلقت السيارة بجنون إلى جهة ما....!!

وبعد دقيقة واحدة تابع الشارع ضجيجه المعتاد.

جاءت المفاجأة صاعقةً، وبعيدة عن التصديق، والوصف، عندما لاحظا حطام اللّعبة تحت أقدامهما، وعرفا السرّ في تحطمها، تبادلا الابتسام، ونظرات الدهشة، والاعتذار والعتب، وتخاصرا، في طريقهما إلى غرفتهما، ليتنعما بما تيسّر لهما من وقت، قبل أن يتوارى من جديد...!

(من فضاء المجموعة)